الجـــــاحظ

كان للبصرة — خلال القرنين الثانى والثالث الهجرى — شأن وخطر أتيا اليها من طرق عدة أهمها وأظهرها طريق العلم والادب اللذين اتخذاها دارا لهما ومحلة لرحلاتهما فجعلاها بذلك قبلة النظر ومطمح الفكر وغاية الأرب فجج اليها الناس من كل فج ونسل الأدباء من كل حدب يقصدونها . كل يرجو أن يصيب من مفاخرها حظا أو أن يقتبس من نورها قبساً يضيء جنبات عقله وفكره .... فلا غرو بعدئذ اذا قلت إنها أولى المدينتين — البصرة والكوفة — وإنها كانت بمن أخرجت من بذرة الفكر أول من دعم أساس النهضة العربية على ثابت من الدراسات العميقة العريضة الأساس التى شملت مناحى الثقافة والتفكير . وحسبك أن يكون من صناديدها وأفذاذها الخليل وسيبويه والمازنى وابن المقفع والجاحظ

نشأ الجاحظ فى هذا البلد الذى حدثتك عنه . ورسمت لك صورته التخطيطية . فدرس على شيوخه واستمع لرواته . وغشى حلقاته ومجالسه يطلب من كل ذلك اللغة والأدب وعلم الكلام . وما يتصل بها من المعارف فأصاب من الجميع بسطة وسعة . وكان خصب التفكير سامى القريحة ممتاز النظر عالى النفس . مأخوذاً بحب العلم فلم يقنع بما أدرك وحصل ورغب فى المزيد والاستفادة فأضاف إلى الثقافة العربية اللغة اليونانية جديدة من عمارة الثقافات الفارسية واليونانية والهندية . وبرزة الفكر الفذ والعقل الجبار . تزعم الأدب وأم رجالاته فى حقبة من أزهى حقب العصر العباسى العظيم وكانت له مدرسة تلمذ فيها كثيرون من أدباء عصره كما استحدث أسلوبا جديدا فى فنون الكتابة تأثره الكتاب وحاولوه ثم كان على رأس فرقة خاصة من أجلاء المعتزلة نسمت باسمه ونسبت اليه

قلت إن الجاحظ استحدث أسلوبا وخلق مدرسة وإيضاح ذلك يقتضى النظر والألمام بأمر الأسلوب الذى تقدمه والرجل الذى أوجده ... وما من ريب فى أن زعامة الكتابة فى العصر الذى تقدم الجاحظ كانت لابن المقفع الذى تصدر الكتاب وأرقى أنواع النثر ما كان مسجعاً مسبياً فيه موسيقى الشعر ورنين الغانية . وما تخلل أجزاؤه تحميدات شأن كتابات خريجى مدرسة عبد الحميد . ذلك أسلوب لا يتسق مع العهد الجديد للدولة آشد مع ما استجد فى اللغة والأدب من أسماء وأعلام وأخيلة وتعابير فكان لا ندحة عن التجديد الذى حمل لواءه ابن المقفع وأظهر مزايا أسلوبه . التوسل البرىء من السجع والتكلف والتقطيع وكتاب كابلة ودمنة أصدق مثال له على أن من البر وتمام الفائدة أن نقول إن عبد الله لم يكن ليلتزم أسلوبه هذا فى كل حيز .

وبعد . فهذا صدر حديثى عن الجاحظ أما عجزه فأنظرنى فيه إلى فرصة مقبلة إن شاء الله.

المنشاة — مدرسة أولاد سلامه

عبد الحليم عبد الفتاح